

من مواقف العروبة

للاستاذ محمد سعيد العريان



من ذلك الفتى الشجاع،
يختال في العزم والقوة،
والشباب والفتوة، حاسرا
عن ذراعه، متقدما على
صحابته، قد قرعهم طولا،
وبهرهم تماما وحنا ... ؟
قال أصحاب محمد: ذلك
قزمان المدنى، ما نعرف
في أصحابه من يفوقه شهامة
ورجولة؛ إنه ليعين الضعيف،
وينتصر للظلم، ويسرع
إلى الصريح؛ لا تقي به عزيمته.

عن أمر يقصد إليه؛ وما تعرف المدينة في فتيانها غير منه على
حماء، وأبرته منه لأهله... ١.

قال محمد: «إنه لمن أهل النار...»

واستمع المسلمون لرأى النبي في الفتى الذى اجتمعوا على
الإعجاب به والتدح بخلاله، فأراجعوه الرأى ولا تاقشوه
العبارة؛ إنهم ليؤمنون بالنبي إيمانهم بكلمة الله؛ وإنهم ليعرفون
محمدأ صدق نظراً وأنفذ بصيرة فما تخفى عليه من أصحابه خافية.
إنه ليكاد ينفذ إلى سرائرهم جميعا بعينه الثاقبين، فيعرف
ما تجيش به نفس كل رجل منهم. وإنهم ليعيشون من هذه المدينة
في جو من الخذر والتربص، بين المناققين من أتباع عبد الله
ابن أبي بن سلول، وبين اليهود من بنى قريظة والنضير؛ فإيسئون
الرأى في واحد بينهم إلا حسبوه عينا وريثة من عيون المناققين
واليهود؛ فمن يكون قزمان، بين هؤلاء وأولئك؟ وهل يدري
أحد من هو وإلى من ينسب؟ إنه لرجل يعيش في المدينة كما
يعيش أهل المدينة جميعا، ولكن أحدا منهم لا يعرف عنه أكثر
ما يرى منه ...

...

وهو في أصحابه، والدولة والريح للسليدين، فلما انهزم المسلمون انحزرت
إلى رسول الله فكنت أبأشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمى
عن القوس حتى خلصت الجراح إلى، وأرت على عاتقها جرحا
أجوف له غور،

وقد أحسنت السيدة نسيبة تربية ولديها حبيب وعبد الله
وملأت قلبهما إيمانا وصدرهما شجاعة وسواعدهما قوة، وعرف
رسول الله فضلهما وقدرهما، وأحضرهما المشاهد وجعلهما مسفرا
ورسلا إلى من شاء من رجال العرب ورؤوس القبائل، أرسل
عبد الله إلى اليمن مع معاذ، وأرسل حبيبا إلى مسيلة الجبار
البطاش المنبئ كذبا في قومه بنى حنيفة وهم من أكثر العرب
عدداً وأغناهم وأقواماً بأساً. أتدري ما صنع الكذاب بحبيب؟
لا يملك القلم أن يقصه عليك، وبأشق الجهد أن يرويه لك، ففي
الجزء الأول من أسد الغابة في ترجمة حبيب، أن رسول الله
أرسله إلى مسيلة الكذاب الخنفي صاحب اليمامة فكان مسيلة
إذا قال تشهد أن محمداً رسول قال نعم، فإذا قال تشهد أنى رسول
الله قال لا أسمع، فيقطع منه عضواً، ففعل ذلك مراراً وقطعه
مسيلة عضواً عضواً، اهـ

وقبض المصطفى عليه الصلاة والسلام لأجله، وزلزل المسلمون
لموته وارتدت من العرب أحياء وجموع، وكان مسيلة أشد الخصوم
لندا وأقوام كيدا وأكثهم مالا وعدداً، كثر بقومه بنى حنيفة
واعتصم بحضونه في اليمامة، وصمد إليه خالد بن الوليد
بحبش فيه السيدة نسيبة وولدها عبد الله، واستعصى أمر مسيلة
وكاد يهزم المسلمون، ثم تجمع نفر من المستسلمين، رموا بأنفسهم
مسيلة لا يبالون إلا أن يلغوا إليه ويتالوا نفسه، وفي هذا نفر
نسيبة وولدها عبد الله، أمانسية فجالت بالسيف حتى بتر ذراعها،
وأما عبد الله فصد وألح في الهجوم على مسيلة مستقتلا
مستسلحا حتى أدركه وأغمده السيف. مات مسيلة فانت الفتنة
بعوته وتم أمر بنى حنيفة مع ابن الوليد صلحا؛ وعادت نسيبة إلى
بلدها بإساعده واحد وولدوا أحد، وهى بما مضى أسعد منها بما بقى. كل
إلى فتاة، وإنما الفوزو المجد أن يكون في سبيل الحق ذهاب مذهب منك
ونسى التاريخ نسيبة وأغمض العين عن بقية أيامها ورض
أن يحدثنا بما نحب من ختام جهادها ومواطن مشاها. إلا أن
مشاها الجنة، وإن ذكرها في الطيات لخالد.

ابراهيم مصطفى

المدينة؟ وما مقامى وكيف أكون إن ظفر العدو واستباح
الحى ووطئت فعاله تراب الوطن...؟ بالأحساب قومى،
وبالعزة بلادى... ولكن...! بالعروبة! أتغفر لى أن أقاتل
فى صفوف محمد وما أنا على دينه؟

وتوزعت الفكرتان لا تسليمانه إلى رأى فيهدأ، ثم لم يلبث
أن خلع الفكرتين جميعاً إلى خاطر هفت له نفسه...

ومضى بحث الخطأ إلى داره سلافة بنت طلحة،، يلتمس
فى الأنس بها ساعة من نهار هدوء البال وراحة النفس. منذ كم
لم يجتمع قزمان وسلافة تسير إليه ويسر إليها؟ إن لها فى نفسه
لمكاناً؟ وإن له فى نفسه لحديثاً يسره أن يلقاها فيحدثها به
وتحدثه؛ لقد كانت العيون بينهما حائلة، فهأى ذى الفرصة قد
أمكنته ليجلس إليها ساعة فى غفلة العيون... وطرق الباب...
- : من؟ من يدق الباب؟ -

- : قزمان ١٠٠٠،

- : وى ١٠٠٠ قزمان؟ وما جاء بقزمان الساعة؟

- : سلافة...

- : حسبك هناك ١٠٠٠،

- : أظنن يا سلافة؟

- : بل أعتقد... قزمان لا يكون هنا وقومه هناك،

- : ولكنى هنا من أجلك يا سلافة،

- : وقومك...؟ وأهلك...؟ ودينك...؟

- : أنت قومى، وأهلى، ودينى ١٠٠٠،

- : لست منك يا قزمان إن لم تكن من أهلى وقومى ودينى؛

لخير لى أن أفقدك فى الجهاد وأنت أحب إلى ١٠٠٠.

- : سلافة،

- : سلافة لقزمان البطل المجاهد ولبست لك ١٠٠٠.

وغادر الفتى فتاته وقد اجتمع إليه هم ثالث. وسار بين البيوت
مطرق الرأس، تتناوله نظرات الرية والحدس. وسمع عجوزاً
تحدث إلى جارتها: أما سمعت يا عاتكة؟

- : ماذا؟

- : حسيل بن جابر، وثابت بن وقش؛ إنهما من تملين؛

هل يقوى أحدهما أن يحمل نفسه من الهرم والضعف؟ لقد لحقا

وتذامر المشركون من أهل مكة على قتال محمد، واجتمع
إليهم من اجتمع من قبائل كنانة وأهل تهامة، يطلبون الثأر لقتلى
بدر. وسار جيش الشرك فى ثلاثة آلاف مقاتل، ما منهم إلا
موتور يحرص على الأخذ بالثأر ولومات دونه؛ وتطأيرت
رمال الصحراء تحت سنابل الخيل وأخفاف الابل، نذيراً بما
سيكون فى غد بين الطائفتين؛ وسال الوادى يقذف بالزبد
رجالا على الصهوات تلمع سيوفها تحت الشمس نائرة مهتاجة؛
وتجاوبت جنبات البادية بجدها الرجال على نواصى الخيل ورنين
الدفوف بين الطعائن؛ حتى أشرف الجيش على (أحد)
فلبثوا ينظرون ما يكون من أمرهم وأمر محمد...

وخرج محمد وأصحابه سبعة إلى لقاء الجيش عند أحد،
فما تخلف فى المدينة إلا الصبيان والشيوخ والنساء والعجزة.
وما انحزل عنه إلا المنافقون من أتباع عبد الله بن أبى. وتخلف
قزمان فيمن تخلف بالمدينة ١٠٠٠

وغدا قزمان يمشى فى طرق المدينة لا يصحبه إلا ظله. أين
رفاقه وصحابته؟ لقد خرجوا جميعاً إلى لقاء العدو فما تخلف منهم
غيره، فقيم بقاءه ولا بقاء لمثله؟ ولكن فيم خروجه وما يؤمن
بما يؤمن به صحابته؟ لقد خرجوا دفاعاً عن دينهم الذى يدينون الله
عليه، وزياداً عن الحق الذى يدعون له، بلى، وحفاظاً على
الوطن العزيز أن تطأ ثراه نعال الغرباء...

وتحدث قزمان إلى نفسه هنية: ما مقامى هنا وأصحابى
هناك؟ وى! وماذا تكون مقاتلهم عنى وليس فى المدينة غيرى
وغير هؤلاء؟

هؤلاء كل ما هنا لك: شيخ هم يمشى على عصوين، وأعمى
ضرير يتوكأ على عكازته، وطفل لدن يركب عصاه يستبق مع
لداته، وعجوز عرقها الأيام جالة وراء الباب تنتظر ما يأتى به
الركبان من أخبار الحرب، وشابة مخضوبة البنان متوارية فى
الحجاب وأقنها إلى الطريق تتسمع بأعز زوجها الذى خرج للجهاد؛
وهذا الفتى وحده ١٠٠٠

وعاد قزمان يتحدث إلى نفسه: ... وماذا يكون من أمرى
حين يعود أصحابى أو حين تأكلهم الحرب فلا يعودون؟ بل ماذا
يكون إن كانت الهزيمة وعجز الأوس والخزرج أن تدافعا عن

اليوم برسول الله يرجوان المثوبة في الجهاد أو الشهادة، وما عليهما والله إن بقيا في الآطام مع النساء والصبيان، وما منهما إلا له إخوة أو ولد في الحرب يكفون عنه ... ١٠٠

قالت صاحبتهما: «بلى، قد علمت يا أختاه! فهل جاءك أن عمرو بن الجوح لم يمنع من الحرب أنه يمشى برجل واحدة، وأن له بنين أربعة مثل الأسد يشهدون المواقف مع رسول الله؟» وسمع الرجل ما تحدث به المرأتان، فكأنما كانتا ترجانه بالخير فما استطاع أن يتمالك مما ينال عليه. واستمر يمشى وكأنما تستعر الحرب في رأسه لا في الميدان البعيد ومرت به دسيسة بنت كعب، تحمل سقاء فيه ماء، فاستوقفها يسألها عن خبرها فما أجابت نداه؛ لقد كانت في طريقها إلى أحد، لتقوم بما تقدر عليه في صفوف المجاهدين ... ١٠٠

وعاد قرمان يتحدث إلى نفسه: «وبلى! ما أنا هنا والحرب هناك؟ وما يكون من أمرى غدا على الحاليين: في النصر والهزيمة؟ أفراراً من الموت؟ أنكوصاً عن الواجب؟ أكفرأ بالوطن والأهل والعشيرة؟ ألا إنه يومك يا قرمان، فليجاهدوا هم في سيلهم، وليكن جهادى معهم لأجل الوطن ... ١٠٠»

وترامت السهام، وبرقت الأسنة، والتقت السيوف، وابتدأت المعركة بين الجيشين وقرمان غير بعيد؛ لقد أدرك الجيش ولما يبدأ النضال، فما فاته أن يشهد المعركة من البداية

من ذلك الفتى الشعاع، يختال في العزم والقوة، والشباب والفتوة، حاسراً عن ذراعه والسيوف في يده، يحترق الرأس، ويقطع الأوداج، ويلقى الرعب في قلوب الأعداء؟ إنه قرمان نفسه؛ لقد قاتل في ذلك اليوم قتالا شديداً، وأبلى بلاء حسناً، فما وضع السيف حتى أثنخته الجراحة.

والنف المسلمون حول قرمان يخفون عنه ما ناله من أذى القتال، وما منهم إلا معجب بصبره وقوة بلائه، فهم يقولون: «والله لقد أبليت اليوم يا قرمان فأبشرا! قال: «بماذا أبشرا؟ فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت ... ونظر المسلمون بغضهم إلى بعض ثم انفضوا ...

«إنه لمن أهل النار! هكذا كان يقول عنه محمد. صدق رسول الله! ونظر قرمان إلى نفسه، فاذا هو يتلاشى نفساً في نفس، وذكر صنيعه في ذلك اليوم، فعادت إليه الفكرتان الأولى وتطرعان في نفسه، لا تسلمانه إلى رأى فيهدأ. أى الخطتين كانت أهدى سبيلاً: أن يدع هذا الدين تمزقه أعداؤه وتمزق معه أهله وعشيرته شراً تمزق، أو يقاتل في صفوف قومه دفاعاً عن أحسابهم؟

أما إنه لا سبيل إلى مافات. لقد أدى واجبه لوطنه، ولكن ... ولكنه غير مستريح إلى ما كان منه ... ونزّت به تازية، فلم يجد لنفسه خلاصاً من عذاب الفكر إلا بالموت، فأنكأ على سيفه فأزهق نفسه ... ١٠٠

بالله! لقد نفذت إلى نفسه بارقة من شعاع هدّته سبيل الوطنية، ولكن قلبه ظل في ظلمات من الضلال والشك. لو عرف ذلك الدين الذي جاهد له يومه الأخير، لأشرق له الدنيا كلها، وانبتق الصبح في قلبه، ولما مات تشيعه الملائكة وتهزج له أناشيد الخلود!

ليت عرف! ولكن، حسب أنه كان مثالا في الوطنية. ليت كثيراً يعرفونه ... ١٠٠

(شبرا) محمد سعيد العربي

آلام فتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألماني

الطبعة الرابعة

ترجمها: محمد حسن الزيات

وهي قصة عالية تمد بحق من آثار الفن الخالد

ومنها ١٥ قرشا